(سدغل)[1] في عدد ازيد من مائة ألف فارس ومائة ألف راجل[2] قد عم جميعهم الاحسان، وتم لهم الانعام والامتنان. حدثني أبو محمد سيد رأي بن وزير[3]، قال: لما استوفت العساكر على محلّ امير المؤمنين رضي الله عنه، جَمَع أشياخ الموحدين أعانهم الله وأشياخ العرب وأشياخ القبائل من الأجناد، أهل الحروب ممن تعوّدوا الغزوات من أهل الرأي وأكابر القواد. قال: وكنت ممن اختصني فيهم، وسألني عن جزيرة الأندلس وقال للجميع من الأشياخ: اشيروا علينا كيف تكون هذه الغزوة إلى بلاد الروم فقد عزمنا عليها براً وبحراً، وصرّحنا بها اعلاناً وجهراً، [79] وقال رضي الله عنه: وإن العساكر - والحمد لله وحده - على ما ترون من وفور الاعداد، وظهور الاستعداد، وطريق واحدٌ ولا يسعهم ولا يحملهم. فقولوا رأيكم، فقال له أشياخ الموحدين - أعزهم الله - وجميعُ الناس: يا سيدنا يا أمير المؤمنين الرأي السعيد، المنصور السديد، هو رأيكم، فأشار إليّ أن أقول، فقلت له: سيدنا ومولانا رأيكم الموفق أعلى وأحلى، فقال رضي الله عنه: نقسم العساكر على روم جزيرة

(1) إذا ما حاولنا أن نجمع بين روايات المؤرخين في هذا الصدد، فسنجد أن المكان الذي يحمل هنا اسم «سدغل» هو نفس المكان الذي يحمل اسم عين جميس عند القرطاس والاستقصا، وقد حاولت أن أقف على تحديد أرض سدغل لكني لم أجد أثراً لهذا الاسم اللهم فيما يحكى في القبيلة السائرة «قسمة بن دغل: واحد أخذ الشكيمة وواحد أخذ البغل» يضربونها في القسمة الجائرة فهذا الرجل الذي هو «ابن دغل» لا يسوي بين الناس ولذلك فهو يعطي أحدهم جواداً بينما لا ينال الثاني سوى لجام! وحاولت بعد هذا أن أقف على عين جميس لكنها هي الأخرى مجهولة، والمفروض أن يكون موقعها في الشمال الشرقي من عين عولة، ومن المهم أن نشير إلى أن هذه الأمكنة إنما تعني المواقع التي كان الجيش يعسكر بها. القرطاس ص 167 - الاستقصا 128

Caillé: La ville de Rabat, page 64

(2) نرى أن ابن صاحب الصلاة يذكر أن عدد الفرسان زهاء مائة الف، وأن عدد الرجالة كذلك مائة ألف بينما ذكر صاحب القرطاس - وتبعه في ذلك الاستقصا - أن عدد الفرسان زهاء ثلاثمائة فارس وأنه علاوة على مائة الف راجل توجد ثمانون ألف مطوع فالفرق بينهما كبير كما ترى، ولذلك فإننا نرجح أن خطأ في النسخ وقع في أحدهما، ونميل إلى أنه في القرطاس

القرطاس ثاني ص 167 - الاستقصا ثان 128 — Caillé: La ville de Rabat, p. 63

(3) راجع التعليق رقم 3 ص 67

الأندلس إلى أربع جهات، وقلت له: نعم يا سيدنا ومولانا أدام الله أمركم، تكون جهة ابن الرنك[1] بقلمرية[2] أولاً، وجهة البوج[3] بالسططاط[4] ثانية، وجهة أدفونش[5] بطليطلة[6] ثالثة، وجهة برشلونة[7] رابعة، فقال: أحسنت يا

(1) راجع التعليق رقم 1 ص 96

(2) قلمرية: (Coimbra) عاصمة بلاد البرتغال القديمة تقع في أقصى غرب الأندلس شمال شنترين تكثر بها فاكهة «حب الملوك»

الروض المعطار ص 164 وراجع التعليق 1 ص 96

(3) هو بالذات «Fernando II de León»، والبوج «EL Baboso» لقب له ومعناها: الكثير اللعاب كما يفسر ذلك صاحب المعجب، وقد كان هذا اللقب في العصور الوسطى تحقيرياً إذ كان مرادفاً للأحمق، وقد دفع هذا النعت بعض الباحثين للتساؤل عن مصدره وهل أنه يستحق حقيقة هذا الوصف الذي ينم عن العته وضعف النظر، وقد أشار المؤرخ اللاتيني ليكاس دي تي «Lucas de Tuy» الذي كان يعيش على عهد ولده، عندما كان يصفه إلى أنه كان في حركاته على فرسه وببدلته العسكرية ينبىء عن ضراوة وشراسة أكثر مما ينبىء عن الشجاعة والإقدام وأنه يغضب في الحين لدرجة أن صوته يستحيل إلى زئير أسد، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى حال الرجل الذي يكون مضرب المثل في دماثة الأخلاق ويعتقد الباحثون أن هذا الوصف من «ليكاس» كاف للتعبير عن المعنى الذي يوحي به التلقيب بالبوج، وقد حضر البوج هذا وقعة الأرك سنة 592 وعاهد بالناصر عام العقاب سنة 609 فقد ورد في ترجمة ابن الحسن بن القطان أنه أي ابن القطان جمع مقالة في «معاملة الكافر» للناصر من بني عبد المؤمن حين وفد عليه البوج سوغ له فيها القيام اليه عند معاينته... فلم يرضها العاهل الموحدي الخ...

المعجب: طبعة القاهرة ص 320 ابن عذاري ص 95 - 103 ابن عبد الملك الذيل والتكملة خامس مخطوط الخزانة «الرباط» D 1705 - ابن خلدون الرابع ص 392 - الاستقصا ثان ص 171-197.

Dozy: Recherches page 106 - 107

Huici: 233 - 235 - 370 - 372

أشباخ: تاريخ الأندلس ص 350 التعليق رقم 1.

(4) يقصد هنا «Ciudad Rodrigo de Leon» الذي يقع شرقي قلمرية وغربي إبلة، وليس القصد إلى Ciudad Real الواقع جنوب طليطلة. Huici: 272 - 279 - 364

(5) أدفونش الصغير هذا هو ألفونس الثامن «Alfonso VIII de Castilla» ملك قشتالة «EL - REY CHICO» 625 - 263 - 255 - 240 Huici: وراجع التعليق رقم 3 ص 97

(6) طليطلة «Toledo» تقع جنوب مجريط شرقي طلبيرة على نهر تاجة، مركز يجمع بلاد الأندلس. أخذها النصارى كما يقول الحميري في المحرم من سنة 478، وتعتبر عاصمة قشتالة Castilla الروض المعطار ص 130-131-135.

(7) برشلونة «Barcelona» مدينة تقع على شاطىء المتوسط شرقي الأندلس، يتم الدخول إليها=

أبا محمد! وقمت وقبلت يده المباركة، وبايعه جميع الأشياخ من جميع القبائل على ذلك وصوّبوا الرأي الذي رآه، وتبركوا بمسراه.

(مرض الخليفة وإسقاط محمد عن ولاية العهد)

قال الراوية : ثم بعد هذا المجتمع في المجلس الكريم ، والعزم العظيم ، مرض أمير المؤمنين رضي الله عنه وأخذهُ وجعُه الذي توفي ودام ذلك به ، والناس مقيمون ينتظرون من الله تعالى شفايته ، ويرتقبون عافيته ، والأطباء يدخلون كل يوم ، ويسئلون ولا طبيب إلا الله تعالى وحده لا شريك له . ولما تمادى المرض أمرَ[1] أميرُ المؤمنين - رضي الله عنه - بإسقاط محمد الذي كان ولي العهد من الخطبة [80] يوم الجمعة الثاني من جمادى الأخيرة من العام المؤرخ، وفهم الناس أن الجرحة الموصوفة قد قضى بها، وأسقط من الخطبة بسببها، تمادى المرض أياماً ودخل الشيخ المرحوم أبو حفص إليه وتكلم معه وواصاه، ووعى منه السرَّ الذي أوعاه، والسيد الأعلى أبو حفص[2] ابن أمير المؤمنين قد ملك الأمر كله مما جعل له أبوه قديماً وحديثاً[3]، وحكمه تحكيماً، وخصَّه بوزارته خصوصاً للأمر وعموماً، وعلم أنه سيَحمي الحمى ويحمي الحريما[4]، واستوثق وصيته عند السيد الأعلى أبي حفص المذكور

= والخروج عنها إلى الأندلس على باب الجبل المسمى بهيكل الزهرة، ويعبر ابن الخطيب عن هذه المنطقة بمنطقة أرغون وبرجلونة، كما يعبر عنها ويسمي باراغون «Aragon» الروض المعطار - 42 - 43 - أعيان الأعلام ص 337.

(1) نرى من خلال النص أن أمير المؤمنين هو الذي أمر بخلع ولده ولما يزل على قيد الحياة راجع التعليق رقم 2 ص 150.

(2) انظر التعليق رقم 2 ص 85.

(3) في أغلب الظن أن الأصل حديثاً وقديماً حتى ينسجم مع السجع الذي اختاره

(4) لا يخفى ما في إثبات الألف من مجاملة للسجع فإنه كالقافية، وقد تكرر هذا من ابن صاحب الصلاة «وأمسكنا بالتصافي بينها الأرواح والأجساما الأسراج والألجاما» (ص 319) وهو جار على سنن الأسلوب العربي في الموضوع. راجع ما كتب على الآيتين الشريفتين وأطعنا الله وأطعنا الرسولا... وتظنون بالله الظنونا...».

ولم يزل الألم والوجع يشتد به وهو يذكر الله تعالى على ما ذكر النبي والمهدي والصدّيقون والشهداء والصالحون رضي الله عنهم وعنه. فلما كان ليلة الجمعة خُلع[1] وحطّ محمد عن العهد ووُلّي أمير المؤمنين أبو يعقوب رضي الله عنه حسب ما أذكره في أيامه إن شاء الله تعالى، وذلك بعد أخيه شقيقه السيد الأعلى أبي حفص إليه وسعيه وحده هو في نفسه، وبما ظهر عليه من الفضل في أمره ونهيه، وحمل[2] أمير المؤمنين إلى مدينة تينملل، ودفن بجانب قبر المهدي رضي الله عنهما. وكان الذي احتمله ابنه أبو الحسن علي، وكان له من السنّ حين توفي ثلاثة وستون سنة على ما رواه الشيخ الحافظ أبو يحيى زكريا بن سنان. وقال غيره: أربعةٌ [81] وسبْعون عاماً[3].

(بنو الخليفة وبناته وكتابه ووزراؤه وقضاته)

قال الراوية : وخلّف من البنين أميرُ المؤمنين أبو محمّد عبد المؤمن بن علي رضي الله عنه : الخليفة أبو يعقوب . الخليفةُ بعده . شقيقه أبو حفص ، أبو عبد الله محمد المخلوع . أبو محمد عبد الله صاحب بجاية . أبو سعيد عثمان ، أبو علي الحسن ، أبو علي الحسين شقيقهما ، سليمان المكنّى بأبي الربيع . أبو زكريا يحيى . . أبو إبراهيم إسماعيل . . أبو إسحاق إبراهيم .

(1) وبهذا فسخ عبد المؤمن الرسالة الملكية التي بعث بها في شأن نصب محمد هذا كولي للعهد قبل الثاني عشر من ربيع الأول من سنة 551 . رسائل موحدية، نشر بروفنصال ص 55 61

(2) لم يفصح ابن صاحب الصلاة عن حمل عبد المؤمن، هل كان وهو محتضر أو ميت! ويصرح صاحب الحلل بأنه توفي بالرباط . ويذكر ابن خلدون أن منيته أدركته بسلا . الحلل ص 131 - ابن خلدون مجلد 6 ص 496.

(3) هكذا بخط الناسخ «سبعون» وهو دون شك خطأ والصواب ستون والذي يؤيد هذا أن ابن أبي زرع نقل عن ابن صاحب الصلاة، في كتابه المن بالإمامة «أربع وستون سنة» فالغالب على الظن أن ابن أبي زرع وقف على نسخة أخرى مصححة . ابن عذاري، البيان ص 36 - ابن أبي زرع، الثاني طبعة الرباط ص 168.

أبو يوسف يعقوب ، أبو الحسن علي . . أبو زيد عبد الرحمن . . أبو سليمان داود . أبو موسى عيسى . أبو العباس أحمد[1].

البنات : صفية ، عائشة .

كتابه أيام خلافته : ميمون الهواري[2]، أبو محمد عبد الله بن جبّل[3]، أبو جعفر بن عطية[4]، عطية بن عطية[5]، أبو الحسن بن عياش[6].

الوزراء في خلافته : أبو جعفر بن عطية ، أبو محمد عبد السلام بن

(1) يتفق ابن أبي زرع وما يوجد هنا عند ابن صاحب الصلاة من أن لعبد المؤمن سبعة عشر ولداً بيد أن المراكشي صاحب المعجب ـ وهو معاصر لصاحب المن بالإمامة ـ يذكر أن أبناء عبد المؤمن فقط ستة عشر، ويلاحظ أن المراكشي حذف من أبناء عبد المؤمن أبا سليمان داود وأبا العباس أحمد لكنه أضاف ولداً لم يذكره صاحب المن في هذه اللائحة هنا وهو أبو عمران موسى، لم يذكره هنا وإن كان قد ذكره بعد مرتين في أثناء سرد الحوادث ص 279 و292 وهكذا يتضح أن هذه أولاده ثمانية عشر ولداً. البيذق جدول بروفنصال ص 225 ـ المعجب ص 198 ـ ابن أبي زرع 168 169

(2) ميمون الهواري من سكان قرطبة كان أديباً فقيهاً وله شعر فيها جرى بين أبي الوليد بن رشد وأبي محمد بن أبي جعفر في التفضيل بين الهيللة والحمدلة اثر فيها قول ابن رشد
ابن الآبار، التكملة «كوديرا» رقم 1136

(3) انظر تعليق رقم 2 ص 95

(4) ولد بمراكش في سنة 517 وكتب للسلطان علي بن يوسف وابنه تاشفين، ثم لما انقضت دولة المرابطين دخل في لفيف الناس وأخفى نفسه إلى أن استكتبه واستوزره بعد حين الخليفة عبد المؤمن في ظروف نبه عليها مترجموه، وقد كان في كتابته مليحاً سهل المأخذ منقاد القريحة سيال الطبع، وبعد أن أدرك مكانة مرموقة عند عبد المؤمن حرت له محنة، وقتل هو وأخوه أبو عقيل عطية أواخر سنة 553
ابن عذاري، البيان ص 16 المراكشي، المعجب، طبعة مصر ص 198 - 234 ـ ابن الآبار، الحلة السيراء، طبعة دوزي سنة 1847 ـ ص 198 - 199 ابن الخطيب، الإحاطة طبعة القاهرة جزء أول ص 132 - 139

(5) هو أبو عقيل عطية بن عطية أخو أبي جعفر القضاعي المراكشي واصله ـ القديم كأخيه ـ من قرية ناحية طرطوشة بشرق الأندلس وقد ترك بعض الآثار النثرية
رسائل موحدية ـ نشر بروفنصال ص 22 - 71

(6) راجع تعليق رقم 3 صفحة 102

محمد[1] ، السيد الأعلى أبو حفص ، أبو العلي إدريس[2] بين يدي[3] أبي حفص . [82] السيد الأعلى المذكور

القضاة له : أبو عمران موسى[4] صهره من أهل تينملل ، حجّاج بن يوسف[5].

(ترجمة أبي القاسم أخيل بن إدريس)

ومن الكتاب : أبو القاسم أخيل بن إدريس الرندي هو أحد الكتاب البلغاء والشعراء كتب في فتوته لآل الملثمين[6] ثم بعد ذلك في أول الفتنة لابن حمدين[7] ، ثم تحول في الفتنة الى بلده ومسكه على معنى النظر

(1) هو عبد السلام الكومي وقد ترجم له بإسهاب ابن صاحب الصلاة ـ راجع صفحات - 41 - 42 45

(2) نال حظوة سامية في البلاط الموحدي إلى أن قبض عليه واستصفيت أمواله في شهور سنة 573 أو سنة 577 وقد تردد ذكره في كتاب المن بالإمامة المراكشي المعجب ص 244 ابن عذاري ص 104

(3) يعني أنه كان وزيراً مسؤولاً لدى السيد أبي حفص وابن أبي زرع، جزء ثان ص 174

(4) من اعتمد عليهم عبد المؤمن في استدعاء عرب افريقية بشعر طويل يقول في أوله

أسلم دعوة ذي إخاء مرشد ... هاد إلى الحق المبين المسعد
ومذكر ما كان أسلاف لكم ... فضلوا به أفعال كل مسدد

وهو غير أبي عمران موسى التاري الذي كان قاضياً للجماعة أيام أبي يعقوب وأيام أبي يوسف كذلك ابن عذاري، البيان ص 21 ـ المراكشي، المعجب ص 246 - 313، ابن أبي زرع جزء ثان ص 175

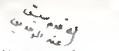
(5) يكنى أبا يوسف، ابن أبي زرع، الأنيس جزء ثان ص 175

(6) آل الملثمين : يعني دولة المرابطين، وقد كانوا يتلثمون ولا يكشفون عن وجوههم، قال ابن خلكان توارثوا هذه السنة خلفا عن سلف، وقد اختلفوا في أصل هذه العادة فمن قائل إن المباح هو سببها ومن قائل غير ذلك، وفي تلثمهم يقول أبو محمد بن حامد الكاتب

قومٌ لهم شرفُ العُلا من حِمْيَرٍ ... وإذا انتمَوْا صنهاجة فهُمُ هُم
لَمّا حوَوْا احراز كلِّ فضيلةٍ ... غلبَ الحياءُ عليهمُ فتلثَّموا

الاستقصا ثان ص 3 - 4 وانظر التعليق رقم 1 صفحة 67 حول أخيل الذي نعت هناك بالعاصي

(7) أبو جعفر حمدين بن محمد بن حمدين ابن الآبار الحلة السيراء ـ ص 222 ـ ابن الخطيب اعمال الاعلام ص 176



والاحتياط لأهله وولده فلما تغلب أبو الغَمْر بن عزون[1] على (رندة)[2] تقبض عليه وسجنه ، فاستقر بمالقة محرجاً عند ابن حسون[3] يبكي سجنه ، ثم إنه رحل الى حضرة مراكش حرسها الله بعد فتحها وقرارها ، واتصال التمكين للموحدين في دارها وجوارها ، فاتصل بالوزير أبي جعفر بن عطية ، وعرف بحديثه مقر الخلافة العلية ، فكتب له عن الأمرْ العلي إلى أبي الغمر بن عزون برندة بصرف ماله والحماية بأهله وقضا أوطاره وآماله . ولم يزل أبو جعفر يعتني به ، ويحسن جميل مذهبه ، فسكن مراكش وخلط ، وقصر بنفسه فانحطَّ عن منزلته وسقط ! فقال فيه إبراهيم بن المسفر[4] الشّاعر يهجوه: (متقارب)

[83] تحيَّلتُ أحْيَل ذا عقّةٍ ... فإن التحيل عيْن الغَبَن
إذا بالمَحلِّ الذي اختلتُهُ ... به المُومساتُ على كلِّ فَنّ !
وقد أكثر القولَ جيرانُه ... وهمّوا بشكْوى ولكن لِمَن؟!

(1) هو اخ لأبي العلاء بن السائب بن عزون وكان صاحب مدينة شريش ورندة فلما أجاز الموحدون إلى الأندلس نزلوا به، فكان أول بلد فتحوا من الأندلس شريش، خرج اليهم صاحبها أبو الغمر فيمن معه من المرابطين وبايعهم لعبد المؤمن، فكان ملوك الموحدين إذا قدم عليهم وفود الأندلس كان أول من ينادى منهم
البيذق، أخبار المهدي ص 125 ـ الحلة السيراء 222 ـ ابن خلدون، سادس 486 - 487. الناصري، الاستقصاء ثان 104 - 107
(2) رندة (RONDA) مدينة قديمة تقع شمال جبل طارق على نهر ينسب إليها ويعرفها عن تعرف بالبراوة.
الروض المعطار ص 79
(3) أبو الحكم الحسين بن الحسين بن عبد الله بن الحسين الكلبي بن حسون وقد اشتهر بكنية أبي حسون ولي القضاء بمالقة سنة 538 ثم دعا إلى نفسه ـ الحلة السيراء 222 ـ ابن الخطيب اعمال الاعلام، ص 254 - 255.
(4) لم نقف على ترجمة ابراهيم هذا، وقد تكون له صلة بأبي الحسن المسفر الفيلسوف المغربي، عبد الله كنون، فلاسفة الاسلام في الغرب، ص 119

(ترجمة أبي بكر بن ميمون القرطبي)

ومن الأساتيد بمراكش أبو بكر بن ميمون القرطبي[1] وصل الى الحضرة العلية واستوطنها واشتهر بمعرفته عند الخلافة حتى نسي قرطبة ومواطنها وقطينها وقطنها ، وانحلت اليه الطلبةَ من كل مكان، ودرت أخلاف الأرزاق عليه بالحقيقة والامكان ، فقال يتغزل في أبي القاسم بن تيسيت[2] من أهل فتيان مدينة أغمات[3] : (المتقارب)

أبا قاسمٍ والهوَى جِنَّةٌ ... وها أنا من مَسِّها لم أفِق
تبوّأت جاحِم نار الضُّلوعْ ... كما خضت بحر دُمُوع الحَدق
أكنت الخليل ؟ أكنت الكليم ؟ ... أمِنْتَ الحريق أمِنت الغَرق [4]

(1) هو محمد بن عبد الله بن ميمون ابن ادريس بن محمد بن عبد الله العبدري وقد كان متقدماً في علم اللسان ملهماً متصرفاً في سائر الفنون حافظاً حافلاً شاعراً فكه المحاضرة ظريف الدعابة خرج من بلده قرطبة في أيام الفتنة فنزل مراكش وأقرأ بها العربية والآداب، وله مقطعات في الغزل شرحها في سفر ضخم، وممن أخذ عنه حسن بن محمد الانصاري، وقد روى هو عن أبي بكر بن العربي وأبي الوليد بن رشد، وقد كان يحضر مجلس عبد المؤمن في حلقة العلماء ويبدي ما عنده من المعارف إلى أن أنشد في المجلس الأبيات التالية التي نظمها في أبي القاسم عبد المنعم بن محمد بن تيسيت فهجره عبد المؤمن ومنعه من الحضور في مجلسه وصرف بنيه عن القراءة عليه مات بمراكش يوم الثلاثاء في جمادى الأخيرة سنة 567 عن سن يناهز التسعين
ابن الأبار، التكملة (كوديرا) رقم 751 ـ السيوطي بغية الوعاة طبعه 326 ص 61-62
صفوان بن ادريس زاد المسافر نشر بغداد ص 6 - 7 العباس بن ابراهيم المراكشي الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الاعلام، ثالث ص 23
(2) راجع التعليق السابق.
(3) اغمات هي في الواقع مدينتان تقعان جنوب مدينة مراكش، احداهما تسمى اغمات وريكة والأخرى اغمات هيلانة ، وبينهما نحو من ثمانية أميال، وبأغمات وريكة يسكن الأعيان وينزل التجار لأنها دار التجهيز للصحراء بها نهر يشق بعضه المدينة، يقال له تاقيروت، فيها قضى المعتمد ابن عباد أيام منفاه ومما قيل فيها وفي ابن عباد:
انفض يديْك من الدُّنيا وساكنها ... والأرض قد اقفرتْ والنّاسُ قد ماتوا
وقُل لعالمها الأرضي قد كتمت ... سريرة العالم العلوي أغمات
الاستبصار ص 207 ـ العباس بن إبراهيم تاريخ مراكش واغمات أول ص 110-111-112-114.
(4) لا يخفى ما في البيت من تلميح لقصة إبراهيم الخليل لما ألقي به في الجحيم، وقصة موسى كليم الله لما ألقي به في اليم، النجار قصص الأنبياء ص 93-189

قال الراوية : وإن هذه الأبيات وصلت إلى الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنه فأمر أن يدخل مجلسه قائلها المذكور[1] وكان الأستاذ يتهاجى مع البكي الفاسي[2] الشاعر، ومما قال فيه البكي : (البسيط)

قالوا : هجاكَ ابنُ ميمونٍ فقلتُ لهم — يا ليت شِعْري مَن الهاجي فأدْريه
قالوا . الفقيهُ الذي مِنْ أرضِ قرطبةٍ — قلتُ الفَطِيم ؟ فقالوا كلُّهم . إيه

(ترجمة أبي الحسن بن الإشبيلي)

الفقيه الخطيب أبو الحسن بن الإشبيلي[3] شيخ [84] طلبة الحضر هو الخطيب المصقع بين يدي الخليفة الرضي أمير المؤمنين عند حضور الوفود ، الناطق بالفصاحة والبلاغة المنظومة نظم العقود ، بادر إلى الأمر العالي على قدره وسق إلى نيل علم الخلافة فناله حين ابتدر ، واستيقظ أن يتشرف بالبساط العالي والناس نيام ، وورد بحر العلم فارتوى منه بالسبق وهم حيام ، فقرَّبه الخليفة واستدْناه ، ونال من الآمال مُناه ، فتجلَّت لَهُ من العُلوم بحور ، وتحلَّت له منها عينٌ وحور ، فصار عند الخليفة في العلوم والمذاكرة أول داخل وآخر خارج ، عالم فاضل يتكلم في المجلس العالي مسترسلاً بالمذاكرة متمهلاً على حسن أدبٍ في المناظرة ، فإذا خرج منه تذاكر مع طلبة الحضر بما وعى من الخليفة من علم « المهدي »[4] وبين لهم ما ناله من العلم

(1) راجع التعليق رقم 1 صفحة 159

(2) هو أبو عبد الله ابن سهل البكي ، ينسب إلى بكة بالباء مدينة ما زالت إلى الآن بشمال مرسية (YECLA) لا إلى بكة بالباء . صفوان بن ادريس : زاد المسافر ص 77 ـ Pérès : la poesie a Fes sous les Almoravides Hes TXVIII 1934 P 33 - 34 ومعجم ياقوت مجلد رابع ص 231 كلمة (فاس)

(3) علي بن محمد بن خليل المكنى بأبي الحسن والمعروف بابن الاشبيلي ، سكن المرية ، وأخذ عن أبي القاسم بن ورد ولازمه واتقن علم الأصول وبرع فيها وكان خطيباً مفوهاً ، أخذ عنه أبو القاسم بن الملجوم وأبو عمرو عثمان بن عبد الله ، توفي بمراكش سنة 567 ابن الأبار ـ التكملة (نشر كوديرا) ص 668 669 ـ رقم 1862

(4) كان المهدي على رأي الاشعرية في أكثر مسائل الاعتقاد فقد كان يعتمد القول بتأويل المتشابه من القرآن والأحاديث بعد أن كان أهل المغرب مقتدين بالسلف في ترك التأويل واقرار المتشابهات كما جاءت ، ومن أجل

النبوي ، إلى فضل قد طبع عليه في ذاته وجنان ، ووصل لجميع غرباء الناس والطلبة بخيراته ، يوصل عنهم كلَّ خير ، ويدفع عنهم كل ضير ، يشفع فيهم عند الأمر العالي فيشفع ، ويتكلم فيصغي لكلامه ويستمع . دام على علوّ مكانته عند الخليفة رضيَ الله عنْه فاسهمهُ الأسهام والديار ، وأناله الاكرام والاوطار وتزوَّج بنت القاضي ابن الملجوم[1] وخدمته في ذلك المطالع السعيدة من بروج النجوم ، ولم يزل [85] على ما ذكرته ، مدة أيام الخلافة إلى أن ولي أمير المؤمنين أبو يعقوب رضي الله عنه فمشاه على منزلته ، ووالاه جميلٍ رتبته . لقيته[2] بحضرة مراكش حرسها الله سنة ستين وخمس مائة وسمعتُ عليه قراءة عقيدة التوحيد[3] ، والعقيد المباركة المسماة بالطهارة[4] ،

= هذا كان يسمي أصحابه بالموحدين تعريضاً باللمتونيين في أخذهم بالعدول عن التأويل وميلهم في نظره ـ إلى التجسيم ، ولهذا فقد كان يرى أن في نسبة الصفات إلى الله شبهة اشراك غيره معه هذا إلى قوله بعصمة الإمام .

الناصري الاستقصا ، ثان 73 ـ راجع التعليق رقم 1 ص 61 ـ أحمد بلا فريج : عبد المؤمن وتأسيس الدولة الموحدية ، مجلة السلام (تطوان) عدد نونبر دجنبر 1933 ص 24 وما يليها .

(1) أسرة ابن الملجوم شهيرة بفاس على عهد المرابطين والموحدين كان منها العالم والأديب والقاضي وقد اشتهر بعضهم باقتنائه للكتب وملك الخزائن العظيمة ، ويكتفي ابن صاحب الصلاة هنا بوصف ابن الملجوم هذا بالقاضي ، وإن على مثل اليقين من أنه يقصد به أبا الحجاج يوسف بن عيسى بن علي بن يوسف بن عيسى بن قاسم (الملقب بالملجوم) الازدي الفاسي ، فقد تفقه بأبيه ، وروى عن جماعة من الأجلاء ، وولي قضاء مدينة القرويين من فاس ثم صرفه عنها يوسف بن تاشفين ... ثم ولاه بعد قضاء مراكش وكان رئيساً في الفتيا والحديث والأدب حدث عنه ابنه أبو موسى عيسى وقد توفي عن بضع وستين سنة في شهر ذي الحجة سنة 492 ، ولعله أنجب السيدة التي تزوج بها ابن الاشبيلي في آخر حياته بعد أخيها عيسى ، ومنهم أبو القاسم ابن الملجوم الذي عوقب من قبل المنصور لما بنى قصراً مشرفاً على حمام عمومي بفاس . ابن عذارى (مخطوط) ص 153 ـ ابن القاضي الجذوة ص 345 ابن الأبار ، التكملة رقم 1674 1930 2097

(2) نلاحظ أن ابن صاحب الصلاة أمسى بمدينة مراكش وقد عرفناه قبل بمدينة قرمونه ثم مرشحاً للكتابة بقرطبة ، راجع ترجمته في المقدمة

(3) هي عقيدة ابن تومرت باللسان العربي (المرشدة) وهناك عقيدة له أخرى باللسان العربي بروفنصال ، رسائل موحدية ص 132 ـ الحلل الموشية 89 ، الاستقصا ثان 73-77

(4) عبارة عن مجموعة أحاديث عشرة ضمنها المهدي كتابه (الطهارة) ـ المراكشي المعجب طبعة مصر 1949 ص 279

وكتاب أعز ما يطلب[1] بقراءة الكاتب أبي عبد الله بن عميرة[2] ، وكان إذا قرا القارىء المذكور فصلاً مما ذكرته من العقائد شرح غامضها وفتح أقفالها على الطلبة وذلل لهم حتى يروض رابضها[3] ، وكان يخصّني مع الطلبة بالسؤال ، ويحتفل بي غاية الاحتفال ، وإذا سمع بذكري نبه عليَّ بأحسن تنبيه ، ونوه فيه غاية التنويه ، مذهباً كريماً من مذهب العلماء ، وغرضاً حليماً من حسن خلق الكرماء ، توفي بحضرة مراكش . ومن فضله وجده أنه قصده أحد الطلبة راجياً منه أن يكلم له صاحب سجلماسة[4] أن يصرفه إذا لقيه فقال لغلامه في الحين : قرب الدابة ! فركب ومشى إلى صاحب[5] سجلماسة الى داره وكلمه فيه وقضى حاجته فيه . وهذه شيم العلماء والفضلاء رضي الله عنه وعنهم .

(1) تبتدىء أول رسالة من هذا الكتاب بقول المؤلف : أعز ما يطلب وأفضل ما يكتسب ، وأنفس ما يدخر العلم الذي جعله الله سبب الهداية إلى كل خير . . فلذلك سمي الكتاب (أعز ما يطلب) وقد نشر سنة 1903 ، وقدّم له الأستاذ المجري جولدزيهر ، هذا وكتاب أعز ما يطلب هو غير كتاب الموطأ . الحلل الموشية ص 125
GOLD ZIHER Mohamad IBN TOUMERT - ALGER 1903
المنوني : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ص 29 حان وجيروم طاروا ، أزهار البساتين ، تعليق أحمد بلا فريج ، ومحمد الفاسي ، الرباط سنة 1349هـ ص 109-110
الدكتور أحمد مختار العبادي ، دراسة حول كتاب الحلل الموشية ، مجلة تطوان العدد الخامس 1960 ص 157
(2) هو محمد بن أبي القاسم بن عميرة الكاتب من أهل المرية يكنى أبا عبد الله ، يروي عن ابن رغبية وأبي بحر الأسدي وأبي محمد ابن السيد وأبي الحسن بن مغيث وغيرهم ، ولم يذكر ابن الأبار تاريخاً لوفاته ولكنه ذكره بين ترجمة الاستجي المتوفى سنة 577 وترجمة ابن المؤذن المتوفى سنة 578 الأمر الذي يشير إلى أنه توفي خلال هذه السنة
(3) يُعطينا ابن صاحب الصلاة وصفاً طريفاً للمجالس العلمية على عهد الموحدين فهي على نحو ما ادركناه نحن في جامعة القرويين مثلاً : يتلو السارد فقرات من المتن فتصدّى الأستاذ للشرح والتعليق . عبد الهادي التازي : جامعة القرويين . بيروت 1972 . ثلاثة مجلدات
(4) سجلماسة : مدينة عظيمة من أهم مدن المغرب ، تقع على طرف الصحراء ، يقول صاحب الاستبصار أنها بنيت سنة 140 أسسها مدرار بن عبدالله ولها إثنا عشر باباً وهي كثيرة النخل والأعناب وسائر الفواكه . وتحمل اليوم اسم الريصاني الاستبصار ص 200-201-202-203
(5) لم نعرف من كان صاحب سجلماسة على هذا العهد إلا أننا على علم من أن أمير المؤمنين عين سنة 571 أخاه أبا علي كوال على سجلماسة

ترجمة أبي محمد عبد الله المعروف بابن جبل

الفقيه الخطيب أبو محمد عبد الله المعروف بابن جبل[1] ، كان صاحب أبي الحسن بن الإشبيلي عند الخليفة رضي الله عنه يخطب بعده إذا خطب . ويحضر إذا حضر فيوري [86] الخطابة والفصاحة من كثب ، وتتعجب الوفود من بلاغته غاية العجب ، دام على التعرف والتنويه للغريب الى أن توفي رحمه الله .

ذكر خلافة أمير المؤمنين ابي يعقوب يوسف بن أمير المؤمنين

في الليلة التي توفي فيها أبوه رضي الله عنهما ، وذلك ليلة الجمعة العاشر من جمدى الأخيرة عام ثمانية وخمسين وخمسمائة وما كان من عضد السيد الأعلى أبي حفص شقيقه إليه في ولايته وحمايته وترشيحه لخلافته وشهادته وشهادة الشيخ المرحوم أبي حفص بن يحيى وغَيْرهما من أشياخ الموحدين أعزهم الله بما أشهدهم به أمير المؤمنين من تقديمه الأمر العزيز عوضه وخلع محمد عن الأمر ، ورضي محمد بخلعه، وتسليم الأمر له بجمعه ، وانبساط الآمال في أيامه ، وكثرة الاغتباط من الأموال بسعادة أعلامه ، وذكر بعوثه وغزواته ، وغرر أفعاله وسيره الكريمة وفضائله العميمة ، واسماء رجال مشاهير من رجاله ، وكثرة البركات منه للموحدين والاجناد في أعطياته واتصال الإحسان بمواساته ، وظفره بكلّ ما عانده في محارباته وتيسير الله له الفتح في فتو [87] حاته ، وما كان من توقف الأخوين أبي محمد ، وأبي سعيد عن البدار - إليه ، والعاقبة الجميلة بعد ذلك لديه ، من بلوغ ما وعده الله به من تكميل عِداته وهباته ، طول أيامه وحياته .

قال الراوية : واستبدَّ السيد الأعلى أبو حفص بالأوامر العلية السلطانية على ما كان مع أبيه ووهبها لأخيه عنةً مرضية . . وأعلم الموحدين أعزهم الله

(1) أنظر التعليق رقم 2 ص 95

هو والشيخ المرحوم أبو حفص بخلافته وانفراده . ومما كان من الخليفة من تقديمه له باشهاده ، واجتمع الشيخ أبو حفص وجميع الموحدين أعزهم الله والجميع من أشياخ القبائل على الرضى به والتيمُّن بمذْهبه ، والاستسعاد بفضائله الصادرة عنه ، الظاهرة عليه برتبه ، فنفذ الأمر منه بكل تأنيس للنَّاس ، وهدايات من العدل باديات الأنوار والاقتباس ، ووعظ الشيخ المرحوم أبو حفص الموحدين أجمع على طبقاتهم ومراتبهم وذكَّرهم بما يجب عليهم في دينهم وصلاح يَقينهم وعُرفهم بما أوجب الله عليهم من مفروضهم ومسنونهم وبحق البيعة ولم يعلم أحداً من الناس بالوفاة[1] واشتدَّ عليهم في لُزُوم الصلاة وضرب بالسياط أهل الفسق والجُناة ، وشغلهم بأنفسهم من الأحاديث بالخُزَعبلات ، وألزم الحفاظ من الموحدين وغيرهم عند المساء وعند الفراغ من صلاة [88] الصبح الحزْب[2] ، واشتد عليهم في ملازمة ذلك بأعظم الاشتداد واللزوب .

ثم نفذ الأمر من الأمير بانصراف العساكر المجتمعة إلى قبائلهم ومواضعهم وتأخير العرض إلى وقت يأذن الله به من إزماعهم واجتماعهم ، وكملت البيعة بأكمل خلوص السْرائر ، وطيب الوفاء في الضّمائر ، فتسمى لنفسه باسم الأمير واستقل بما صار اليه من العهد العزيز والتأمير ، وبعد كمال هذا الترتيب ، والفراغ من الأشغال بما ذكرته من التأديب ، انصرف الأمير الى حضرة مراكش مع أخيه والأشياخ من الموحدين أعزهم الله فملك دار الخلافة ، وأنافت به السعادة أكرم إنافة ، وحاز المخازن والأموال وأضافها في مقر حقّ الدين والمسلمين أحسن مستقر وإضافة .

(1) تقليد جرى عليه دُهاة الحكام قبل أن يأخذوا بناصية الأمور ، فقد يكون اعلان الوفاة قبل الاحتياط فرصةً للمنافسين والمتهورين بل أنت ترى كيف أنّه لم يكتف باخفاء الوفاة ولكنه «شغل» الناس بأنفسهم عن «القيل والقال» .

(2) يعني تلاوة القرآن حزباً حزباً ، وقد عرفت قراءة الحزب منذ أيام المهدي ، لكن الجزنائي ينقل عن ابن صاحب الصلاة انها كانت بأمر من يوسف بن عبد المؤمن بن علي في سائر البلاد . زهرة الآس ، طبعة الجزائر ـ بنشر بيل 1923 ص 74 الحُلل ص 89

الثناء على الأمير أبي يعقوب في شيمه الكريمة العظيمة مدة إمارته ومدة خلافته ملخصاً حتى أفسده في خلافته المستقيمة

قال الراوية : كان[1] الأمير أبو يعقوب يوسف رضي الله عنه كاملاً فاضلاً عدلاً ورعاً جزلاً مستظهراً للقرآن كتاب الله تعالى بشَرْحه في ناسخه ومنسوخه قارئاً لنصه ، حافظاً له على وقفه وابتدائه عالماً بحديث رسول الله صلى الله [89] عليه وسلم بصحيحه ومختلفه وحَسَنِه وغريبه وبإسناده متقناً في العلوم الشرعية والأصولية متقدماً في علم الإمام المهدي رضي الله عنه محكماً لأفانين علمه الذي أملاه وأخذ منه ، محباً لأهله ضابطاً على الأمر العلي ، باسطاً رعيه ، صادقاً رأيه للموحدين أعزهم الله بالفضل الجلي باتّصال المواساة في كل شهر وبالبركات في ممر الدهر ، صليباً على الأعداء أبياً عن الضيم ذائداً عن الأمن راغباً في العمارة ، مثابراً على الجهاد ، مشيعاً للعدل مقسطاً فيه ، يذهب في زهده وورعه ، وبسطه لعدله ، وسداده في فضله ، مذهب أبيه الخليفة رضي الله عنهم . نظر بنور الله تعالى فأصلح العدوة وأمنها ، وأنس شاردها وسكنها ، وقرَّب أشياخ طلبة الحضر وأحسن لعامتهم كفعل أبيه ، وأمرَّ عليهم فضله المستمر وخصَّ جزيرة الأندلس في إمارته وخلافته ببعوثه لها بالغزو فقمعوا عاصيها وعدوّها ، وافترعوا بالفتح قاصيها من الأرض ودنوها ، وأحسن لأجنادها وسبل عليهم الخيل لغزو الكفرة في امدادها بالمئين والآلاف في إعدادها ، وهو الذي مصَّر إشبيلية وأمر ببناء سورها من جهة الوادي[2] من ماله بعد هدْم السيل[3] العظيم له الخارج على جنباتها

(1) نقل ابن عذاري عن ابن صاحب الصلاة ملخصاً لهذه الترجمة ، ولكنه عوض أن يسوقه مقدمة لحياة الخليفة الحافلة ، عوض ذلك جعلها خاتمةً لأيامه

راجع مخطوطة ابن عذارى ص 132-133

(2) يعني به الوادي الكبير (Guadalquivir) وهو ينبع من شعورة من الجبال الوسطى في اسبانيا ويصب جهة قادس غير بعيد عن مصب وادي آنة

(3) تستهدف اشبيلية على الدوام لسيول جارفة حكى عنها تاريخ الأندلس فمنها سيل سنة 574 ، وسيل 597 ابن عذارى ، البيان المغرب ص 105 ـ الروض المعطار ص 21

وجهاتها في عام أربعة وستين وخمس مائة وبناه بالحصى والجيار من [90]
الأرض إلى أن علاه على حاله الآن على يدي أمنائه الأخيار، فلما عقدت البيعة له بإجماع واصفاق ، في النصف(1) من جمادي الآخرة عام ثلاثة وستين وخمس مائة واستوسقت له الآمال ، وتحرك غازياً بعسكره الضخم الشهم مردفاً لأخيه السيد الأعلى أبي حفص في غزو ابن مردنيش واستقر بإشبيلية عام ستة وستين وخمس مائة وَعقد جسراً على واديها بالقنطرة العظيمة الهندسة ، المسكة بالمراكز المؤسسة ، لعبور الناس عليها من أهلها وأهل الشرف(2) إليها لعمارتهم وحاجاتهم ومرافقهم ، ولإجازة العساكر للغزو عليها ، تقدم له في ذلك من الأجر الجزيل ، والذكر الحفيل ، ما لم يتقدم قبله لملك في الأندلس منذ فتحها موسى بن نصير وطارق بن زياد وتحصل له عند الله تعالى في ميزانه من الزلفى الكريمة ما يجده عنده بأوفر الحظ الأوفى فإنه سبّلها على المسلمين للعبور عليها في مصالحهم دون قَبالة(3)، ولا إجازة عمالة ، وجلب الماء في الساقية لمشرب أهلها ولقصره ، وابتنى فيها الجامع الكبير العتيق لاتساع الناس فيه عن ضيقتهم في جامعها(4) فساوى به جامع قرطبة في الاتساع واستجلب في ابتنائه العُرفاء والفعلة ، فكمل في مدة قليلة من الأعوام على عظمه وسعته وحرمه وارتفاع سَمْكه ، وابتنى قصبتها [91] إلى نصفها بتأسيسها حتى الى الماء ، وابتنى الزلالق(5) لأبواب إشبيلية من جهة الوادي

(1) معلوم أنه تبوأ كرسي الخلافة منذ الليلة التي توفي والده ليلة الجمعة العاشر من جمادى الأخيرة من سنة 558 لكن ابن صاحب الصلاة لا يقصد هنا البيعة ابتداء، وإنما نقصد تجديد البيعة التي تمت سنة 563 بمناسبة التسمية لأول مرة بأمير المؤمنين
(2) حول الشرف راجع التعليق رقم 5 ص 67
(3) القبالة هي في الأصل الضريبة التي تدفع لبيت المال، وقد أطلق استعمال هذا اللفظ على الضرائب الزائدة على ما يقتضي به الشرع ، وكانت هذه الكلمة تستخدم في المغرب والأندلس للدلالة على الضرائب التي كان يؤديها أهل الحرف أو بائعو السلع الرئيسية (أنظر دوزي ملحق القواميس العربية 2 - 305 - 306
(4) يعني به جامع أشبيلية القديم وهو جامع ابن عدبّس الذي يأتي الكلام عنه انظر مجلة الأندلس مجلد 11 سنة 1946 صفحة 425 ومجلد 12 سنة 1947 صفحة 145
(5) الزلالق جمع مزلاق المزلاج يغلق به الباب، وكان القياس أن يكتب هكذا : الزلالج بالجيم.

احتياطاً من السيل الخارج عليها ، وابتنى قصبتها الداخلية والبرانية(1) خارج باب الكحل(2) والقصور المكرّمة خارج باب جهور(3) والقناطر حول مدينة إشبيلية من كل جانب ، وأسكن الثغور القفرة من كلب النصارى عليها ، وابتنى جميع أسوارها وأعادها للإسلام بالعمارة بعد قفارها وفدى من الأسرى من وجد من أهلها عند الرُّوم ، وأنقذهم من رِبْقة عبودية الكفر الى حرية الإسلام ، وفدى عليّ بن وزير(4) ، وغانم بن مردنيش(5) فاتديه من أسر النصارى بمال كبير وغزا الكفرة بعونه وعساكره المؤيدة براً وبحراً ، وأذاقهم عيشاً مراً ، حتى أذعنوا للصلح معه حسب ما أذكره في محارباته(6) وهو الذي حمى بطليوس(7) من الكُفر ، وابتنى لها قصبتها الشاهقة المانعة وسرّب الماء اليها من الوادي ، فقطع العدو أمله عنها بما أشحنها من الآلات والعدد

(1) يعني الخارجية وهي عبارة معروفة الاستعمال هذا ويظهر أن القصبتين اللتين كان القيصر بناهما في وسط المدينة واللتين تعرفان «بالأحويين» قد درستا الروض المعطار ص 18
(2) باب الكحل أحد أبواب اشبيلية ، وتوجد أيضاً باب الكحل ضمن الأبواب القديمة بمدينة مراكش بالرغم من أنها لم تذكر في المصادر Huici 251 - 254- 500 - 529 - 564.
عباس بن ابراهيم المراكشي : الاعلام بمن حل مراكش وأغمات من الاعلام أو ص 109
Allain et Deverdun les portes anciennes de Marrakech Hesperis 1957 P. 85 - 126
(3) تردد ذكر هذا الباب كثيراً عند القصور الموحدية وقد حاولنا أن نقف على موقعه من مدينة أشبيلية ، ومن التوافق أننا نجد المؤرخ المسيحي Ortiz De Zuniga في كتابه «الحوليات الكنسية لمدينة أشبيلية» (الجزء الأول 32 - 39) يتحدث عن باب يسميه Vib Ahoar كان موجوداً في حيّ اليهود باشبيلية ولا يستبعد - كما يقول الأب ميلتشور - أن يكون هذا الاسمُ تحريفاً لباب جهور الذي يذكره ابنُ صاحب الصَّلاة
Melchor Antuna: Sevilla y monumentos arabus P. 61 - 87
(4) هو أبو الحسن أخ سيّد راى بن وزير من شيوخ الثوار بالأندلس الذين استناموا إلى الحكم الموحدي وقد فداه أمير المؤمنين بأربعة آلاف دينار ابن عذارى 99.
(5) هو غانم بن محمد الذي أسندت إليه بعد ذلك قيادة الأسطول المرابطي ، في بحث وأسر سنة 576 على ما يذكر ابن عذارى في البيان المغرب ص 109
Melchor Companas de los Almohades en Espana P. 43 Note 1
(6) في السفر الثالث
(7) بطليوس (Badajoz) مدينة تقع شمال إشبيلية شرقي يابرة ، بناها عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقي ، وهي بقعة جليلة على ضفة نهرها الكبير المسمى العور، والذي ينتهي إلى حصن مارتلة الروض المعطار ص 46.

من الأسلحة والرجال المنتخبة ، وهو الذي ابتنى المدينة المتصلة الثانية لمدينة مراكش على ما أذكره[1] في خلافته في موضعه . ونال الناس معه في إمارته وبعد ذلك في خلافته من جميع الطبقات من الكتّاب ، والعمّال ، والطلبة ، والقضاة ، والرعية بصلاح أحوالهم ونماء [92] أموالهم ما لم يُعْقَد مثلها في زمان حتى شبّهها الطلبة وأهل التواريخ بأيام عثمان بن عفان رضي الله عنه[2] وهو الذي غزا بجيوشه مدينة (وبذة)[3] ونازلها وحاصرها وأشرف على فتحها على ما ذكرته[4] .

الوفاء بالعهد

ولما كانت الوفاة للخليفة أظهر الشيخ المرحوم أبو حفص بن يحيى من بطانة النُّصح بالوفاء، والدِّفاع بالحماية على أكمل الاستيفاء ، ما وطد الأحوال ، ومهَّد الآمال ، برأيه الموفق السديد ، وسعيه في الباطن والظاهر الحميد ، ولازم الجلوس والحضور بنفسه في المجلس العالي ، واقتدى الموحدون ـ أعانهم الله ـ به في حسّه فثابروا البكور والالتزام على التوالي ، فاتصلت الحال واستقامت على الطريقة ، وثبتت الأعمال والآمال بالحقيقة ، ولم تزل الوفود من كل جانب يصلون ويوصلون فيرجعون مسرورين ، مقبولين في مسآيلهم شاكرين مشكورين . وتوالى استبداد السيد الأعلى أبي حفص

(1) صفحة 143 - 209 - 292.

(2) ذكر المسعودي أن عثمان كان في نهاية الجود والكرم والسماحة والبذل في القريب والبعيد وفي أيامه اقتنى جماعة من الصحابة الدور والضياع فمنهم الزبير بن العوام بنى داره بالبصرة وهي المعروفة في هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وكذلك طلحة بن عبد الله التيمي - إلى أن قال وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه فيما تملك من الأموال في أيامه

مروج الذهب، المجلد الرابع طبعة باريز ص252 - 253 - 254 - 255

(3) وبذة (Huete) حصن على وادي مجرب اقليش يقع في الشمال الغربي لمدينة قونكة جنوب مدينة شنتمرية الحميري الروض المعطار ص 194.

(4) ابتداء من 342 من المجلد الثاني

على معنى الوزارة والإمارة بإنفاذ الأوامر السلطانية عن أمره ، على ما كان عليه عند أبيه من الوزارة في سرّه وجهره ، عن رِضى من الأمير أبي يعقوب أخيه واتفاق وإجماعٍ قديم [93] لزيم من شيوخ الموحدين وأصفاق وأخوة موصولة ، ومساكنة في دار أبيهما بدار الحجر[1] على السلامة في النفوس من غيرة الأمر بالقبول مقبولة ، وعلى حب الإخاء محمولة ، ووزر إدريس بن إبراهيم بن جامع[2] بين أيديهما ورأيهما لرفع المرفوعات والمسائل ، وتوصيل رغبة الوافد ومسئلة المسائل ، وكان هذا إدريس نشأة دار أمير المؤمنين ، وابن أمينهم الأمين ، ممّن يؤمن على الحرمة ، وممّن غذته النعمة ، فكان إذا أكمل الخدمة السلطانية في أوقاتها وانفصل الناس ، لازم الدخول على انفراد إليهما فيما يختص بهما ، ويحتاجان من مؤونتهما وأسبابهما ، بتوسط عقلي ، وصمت على السلامة بينهما مبنى أصلي ، مع عفاف في طبعه ، وكفاف في إذاية الناس في رفعه ، إذا وفد الوافد رحّب وأرجاه في طلبه وأنزله وأمكنه ، وأنساه أهله ووطنه ، وسعى له في خير ، ووصله بكل خير . وسأذكره[3] وأذكر إخوته على حالهم ونصحهم في أشغالهم على ما يجب . فلنرجع الآن إلى ذكر الأخوة .

(1) يعني بها القصبة المعروفة بقصر الحجر أو دار الحجر وهو حصن حصين كما يذكر صاحب الحلل الموشية الادريسي نزهة المشتاق ص 69، الحلل الموشية نشر علوش 1936 ص 114

Castan Deverdun Marrakech des origines à 1912, page 196

(2) ظل ادريس ابن جامع وأخوته وبنوه محل ثقة واحترام طيلة خمس عشرة سنة لكنهم سنة 573 على رأي ابن عذارى أو 577 على ما يقول المراكشي كانت السطوة بهم وأبعدوا إلى مدينة ماردة (Mérida) ستة أعوام إلى أن مات أبو يعقوب في غزوة شنترين ثم لما استخلف أبو يوسف عفا عنهم

المعجب طبعة المغرب 1938 ص 148 طبعة القاهرة 1949 ص 244، ابن عذارى ص 104، راجع التعليق رقم 2 ص 157

(3) دون شك في المجلد الثالث، وقد تولى ابن عذاري تلخيص ما يوجد هناك فانظر التعليق السابق

(ذكر ما صار اليه أمر أخوة أبي يعقوب)

وكان السيد أبو الحسن علي بن أمير المؤمنين رضي الله عنه حاضراً لبلة الوفاة والبيعة فمشى إلى تيملل على ما ذكرته للمواراة بالجسم الكريم فرجع من عشيته وفي نفسه علة من دخل الحسد ، مودنة له في العاجل والآجل بطول الكمد ، فأقام [94] مكموداً فريداً بما في نفسه ، يظهر إخاء وفي طيه حقوداً فلم تمهله علته ، ولا طالت[1] له مدته ، حتى فاضت نفسه في تلك الأيام ، وغابت شمسه قبل الحمام ، وذلك في بقية عام ثمانية وخمسين وخمس مائة

وأما السيد أبو محمد عبد الله فأقام ببجاية بعد الحال ، يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، ويرى الرأي ويكرره مع مَن يختصه في الذكرى ، ويعزم على ما فيه الرضى لله تعالى ولمنصبه الكريم في الدنيا وفي الدار الأخرى ، ولم تزل مخاطبة الأمير اليه بالاستلطاف والاستدعاء ، والجواب منه بالعدة في النظر بالزماع الى ذلك الإخاء ، فمطل نحو سنة ونصف، واعتذر عن الوصول، ثم عزم وتحرك عن بجاية وظاهره إيصال الشمل الموصول ، وإن أمله خير مأمول ، فلما استقلّت به الرّواحل ، أدركته المنايا بما كانت في عينها تحاول ، فبان عنه الصاحب الأهل ، وأفل بشمسه الأمل ، وذلك في عام ستين وخمس مائة ، فوصل خبر نعيه الى الأمير أبي يعقوب بمراكش فتفجع له ، وآوى حمله وأهله ، [ونظر في تثقيف بجاية وأنظارها]، ريثما يوجه لها مَن[2] اختاره لحماية ديارها وأقطارها ، ثم بعد ذلك كان الجبر بصفاء النفوس ، وابتهجت وجوه الآمال بعد العبوس ، وتنزلت الرحمة بتقليب القلوب ، وأجاب المتوقف الى البدار بتعجيل [95] المطلوب المرغوب .

وأما السيد أبو سعيد عثمان فتوجه اليه الى قرطبة عن الأمير الحافظ

(1) كذا بادخال لا على الفعل الماضي مع أن قصده النفي لا الدعاء على خلاف القاعدة الأغلبية لدى النحاة
(2) سيكون هو أبا زكرياء يحيى بن عبد المؤمن انظر صفحة 145

المرحوم أبو عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم[1] ومعه الحافظ الأجل أبو يحيى بن الشيخ المرحوم أبي حفص[2] ، والحافظ أبو الربيع سليمان بن داود[3] ، فتمارض عند وصولهم واعتل ، وأطال الالتواء واحتل وارتبط لهم ثم انحل ، فرجعوا من عنده الى الأمير بمراكش بمواعيد . وقد تكلم الناس المرجفون ، وزخرف في حديثه المزخرفون ، وثبت الله الحق ، ثم أجاب الصدق، ولما التوت حال هذا السيد في الاعتذار، وتلوّم له في الانتظار، بعد المدة التي ذكرتها عزم السيد الأعلى أبو حفص بالمشي إليه واستدعائه بالتأنيس والقدوم إلى جبل الفتح : جبل طارق عليه. وتسامع الشعراء فوصلوا

وصول وفد الشعراء عند وصول خبر هذه البيعة السعيدة اليه بقصائدهم للتهنئة عليها

فتقدمهم أبو الوليد إسماعيل بن عمر الشُّلْبيّ[4] وقام منشداً ، وقال : الكامل)

عَهْدٌ أنار بـه الهُدَى والـدِّين ... واستَظهر التأييدُ والتَّمكين
بُشرى الخلافة إذْ تقلَّد عهدَها ... البرُّ التقيُّ الطاهرُ الميْمُون
[96] نجلُ الإمام ونشأةُ الخُلق الرضَى ... يَبدُو عليه هديُه ويبين
الناصرُ المنصورُ أوضح نهجَهَ ... في الصالحاتِ فنجْحُه مضمُون
يُنمَى إليه ولادةً وسيادةً ... وكذاك تنمي للأصُول غصُون
بالمنبت الزاكي تأصَّل واعتلى ... وسقاه صَوبُ الفضل[5] هَتُون

(1) أنظر التعليق رقم 5 ص 93
(2) راجع التعليق رقم 6 ص 93
(3) لم نقف على ذكر لأبي الربيع فيما تتوفر عليه من مصادر عن العهد الموحدي
(4) هو بالذات المعروف بالشواس أنظر التعليق رقم 5 ص 142
(5) البيت غير موزون كما لا يخفى ، وقد حاولت أن أرقعه ببعض الكلمات ، وبعد وقوفي على عين المخطوط بالبودلياد (اكسفورد) تبين لي أن التصوير لم يلتقط كلمتين على الطرة مقحمتين بين الفضل والهتون وهما وهو

ريان من ذاك النّعيم هنا له ... وصفا له اليُنْبوع وهو معين
رضع الخلافة ناشئاً في حجْرِها ... وغدته حاملة الرضاع لُبون
وحنتْ عليه حانياتٌ للعُلَى ... بمكانه من غلوهنّ مكين
ضمن السيادة في الطُّفولة وازدهت ... بسُعوده الأيام وهو جنين
عزّ ربيب، والعُلوم لِدَاتُه ... والمشرفيّ أخٌ له وخدين
ترك المهاد لِسَرْج أجردَ سابحٍ ... وصفا عليه سرده الموضون
شبل غدته لحومُ آسادِ الوَغى ... في حيث ملتفّ الوشيج عرين
وكأنّما الهيجاءُ أمٌّ برّةٌ ... تحنو عليه برفقهِ وتلين!
يا سيّداً أعطى السيادة حقّها ... واختصّه التَّرجيحُ والتّبيين!
شهدتْ بفضلك صادقاتٌ وقائعٍ ... لم تلتبس بشهودهنّ ظنين!
وتحدّثت بيضُ الصّوارم في الطُّلى ... بحديثِ مَجْدك والحديثُ شجون!
لله درك والفوارسُ تدّعي ... والحربُ خابرةُ المتاع زَبُون!
واليومَ يظلم للعُيُون قتامه ... فتثيرهُ لك غرةٌ وجبين!
في مأزق ضنكٍ تزلّ كماتُه ... ومقامُكُمْ صدقٌ هناك رَصِين!
ولربّ صَوال الزّئير حطمتَه ... فغدا لَهُ بَعْدَ الزّئير أنين!
[97] هي بيعةُ رضيَ الإلاه مقامَها ... وأُتيح فيها اليُمن والتّأمين
أُمنيةٌ للأولياء كريمةٌ ... وعلى العُداةِ الأشقياء مَنُون
مُلئت عيونُ الدّين منها قُرّةً ... وارتدّ طرفُ الكُفْر وهو سَخِين
حسدتْ لنا زُهر النّجوم سُعودَها ... فتقيم خدمة أمرها وتدين
أخذ السّماكُ لها بأهبةِ حازِمٍ ... فسِنانه متألّقٌ مسنون
وسرت إلى الأرماح بُشرى سعْدها ... فهفتْ مَعاطفُ لدنةٌ ومُتُون
وحلتْ وُجوه البيض فاعتقدت لها ... حسْنَ الجلاءِ صياقلٌ وقُيُون
حنّت مطهمةُ الجيادِ ليومها ... فصهيلُها شوْقٌ لَهَا وحنين
وحنتْ موتّرةُ القِسيِّ سيَاتها ... وعلا لَها إثْرَ الرّماء رنين
شكراً لمولانا الخليفةِ إنّهُ ... بمقامِه الأرضى يُحاط الدّين
ولّى الأمانةَ أهلَها وسمَا لَهَا ... بمكانه رحْبُ الذّراع أمين

لم يعْدُه الرأيُ السّديدُ وهدْيُه ... بجميع أحوال الصّلاح ضمين
حذْوُ النّبيّ وسَليل أنْوار الهُدى ... أدْنته من خيْر الظّهور بُطُون
حازَ العُلا، فكمَالُه وخلالُه ... تُتْلَى لَهنّ مُعادةً ياسين!
اسعد وليّ العَهْد واصعَد سامياً ... والله ربّك ناصرٌ ومُعين
واستخلص العِلْقَ الثّمين فأنتُمُ ... عِلْقٌ نفيسٌ للعلاء ثَمِين!
وتهنّأوا الحظّ الجَسِيمَ، ففضلُكُم ... بوفور خيْرات الإلاه قَمِين!
الأمرُ أمرُ الله وهو مؤيِّدٌ ... والحبْلُ حبْلُ الله وهو مَتين
يرعاك مَن يُرعيك عهد عِبادِهِ ... ويقول للأشياء كن فتكُون!

وقال الشيخُ المُسنُّ أبو بكر المحّل الشّلبي[1] وأنشد : (كامل)

[98] تَهْنِ الخلافةُ أن حلوت صباحَها ... ومددْتَ من نُور الهُدى أوضاحها
وعقدتَ عقدَك في الوفاء وعَهْدَها ... ووصلتَ راحَك في العلاءِ وراحها
ووفرتَ من حُسْنِ السّياسة حظّها ... فحميت جانبها ورشْتَ جناحها
صدقَتْ أميرُ المؤمنين فراسَةً ... لاحتْ كضوء الصُّبْحِ حين ألاحها
ولاكنّها عينُ اليَقين بأنّها ... قد أوقدتْ بكَ للهُدى مصباحها
لم تَنْحُها حتّى حَوَيْت فضائِلاً ... شُدّتْ إليكَ نِطاقها ووِشاحها
إنْ كانتْ النّعماء كن سحابها ... أو كانت الهيجاء كنّ سلاحها
إنْ أهلكَ الأعداءَ رِيحُ عذابِها ... بعثتْ لأحياء العُفاة رياحها
شردتْ زماناً عن أكُفّ معاشِرٍ ... سبتْ لديكَ شرُودها وجماحها
قامَتْ وقد حَمِدَتْ إليك مقامَها ... وركَتْ فلم تطلُب إليكَ سَراحها
قامَتْ خلائِقُكَ الكرامُ بوصفها ... طورَ المديح فأفحمتْ مُدّاحها
ردّتْ على الخُطباءِ والشُّعراءِ في ... حوْكِ الكلام فعطّلتْ أمداحها
فالبسْ محاسنها وجر ذُيولَها ... فالله قدّرها لكُم وأتاحَها
سُنّتَ الزّمان وأهلَهُ بشمائِلٍ ... ضمنتْ لغايات الأمور صَلاحَها

(1) راجع ترجمته في التعليق رقم د صفحة 95